عبدالرزاق الربيعي يفتح سيرة الوطن والجرح:

في عُمان عثرتُ على جذور أسلافي السومريين

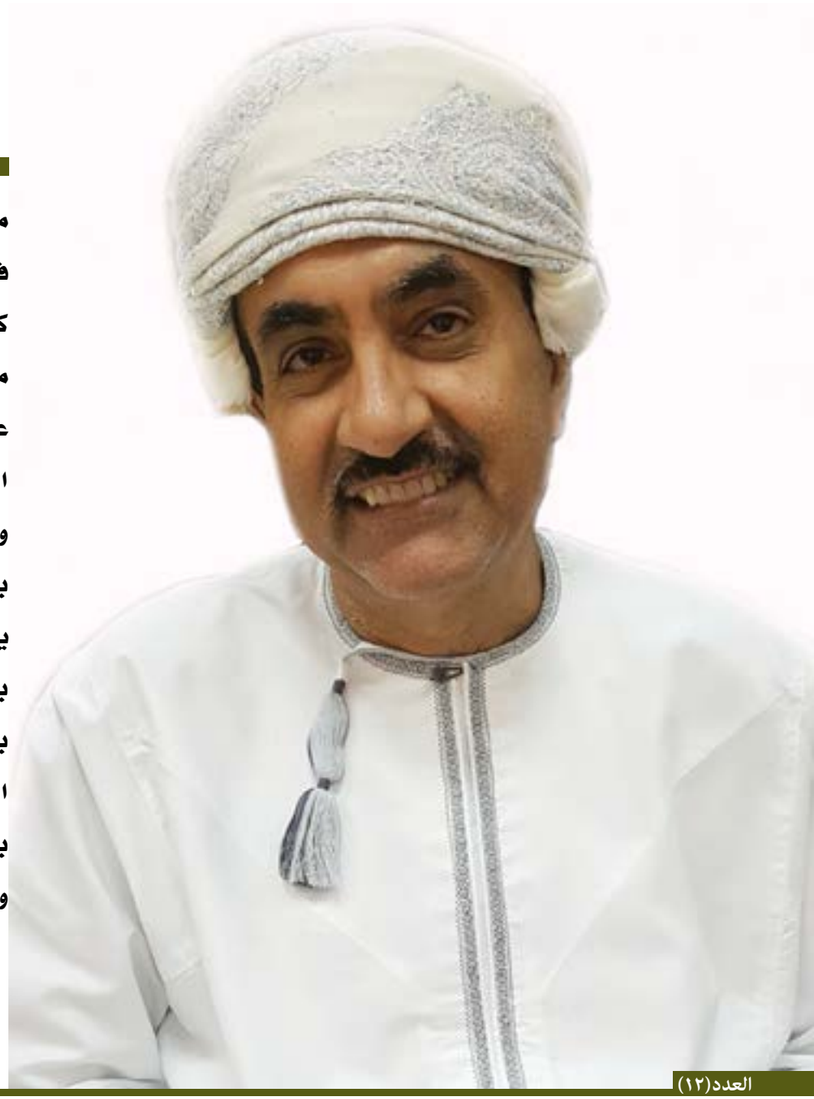

■ أن تحاور شاعرا فأنت على موعد مع اللغة، وأن تحاور فاقدا فأنت تلتقي جرحا مفتوحا تحاول كتابة نزفه بالأجوبة المنهمرة من سكين الأسئلة، وأن تحاور عبدالرزاق الربيعي فذلك يعني أن الحوار سيكون بلغة الجرح النازف، وهو يواري الثرى زوجته، ويبكيها بديوان شعر، وشاءت الأقدار أن ينال الجنسية العمانية التي حلمت بها «عزة الحارثية» من أجله طويلا بعد أيام من رحيلها، فيبكي كل الذين فقدهم، أمه وأبيه وقد رحلا بينما يقيم بعيدا عنهما في المنفى، وأخيه الذي أعدمه نظام صدام.■

● ماذا تعني لك عمان ؟

إذا لم نحسب سنوات الطفولة، التي ليس من الممكن معها تلمّس خصائص المكان بوعي العارف، وعددنا سنوات أعمارنا ابتداء من مرحلة النضج، والتحقق الذاتي، فإنّي أستطيع القول: إنّ حوالي نصف عمري أمضيته في عُمان التي رست عند موانئها سفينتي، بعد أن تآكلت حوافها بفعل ضربات أمواج الحياة المتلاطمة، بعد أن ركبنا محيط الشتات العراقي، بكلّ تقلباته، فاختار معظم الشعراء العراقيين، أوروبا، وأمريكا، ومن بينهم صديق رحلة عمري الشاعر عدنان الصائغ الذي قذفته الأمواج إلى «السويد»، وحاول مرارا أن يجرّني حيث يقيم، لكنّني قاومت إلحاح الصائغ، إذ أردت لسفينتي أن تبقى تحوم في داخل مدار التاريخ المشترك، والجغرافيا الواحدة، ولغة القرآن والمعلقات، والمتنبي، و«عين» الفراهيدي الذي سار بالاتّجاه المعاكس لخطواتي، فغادر عُمان إلى البصرة، ليموت فيها سنة ٧٨٩م، وكنتُ أريد أن أبقى على حافّة المكان الأول، الوطن الأم – العراق، وهنا أستحضر أبزون العماني (أبوعلي الكافي) المتوفى عام ٤٣٠ هـ الذي عاش سنوات في العراق، ثم عاد لعمان، وحين سئل عن ذلك، أجاب:

وإذا الأماني لم تنلها معرقا
فاثن العنان وسر تنلها معمنا

وبعد أن كنتُ «معرقا» قادت خطاي رياح الأماني، وصروف الأيّام إلى عمان فصرت «معمنا»،

فوجدت عُمان واحة للأمان، والاستقرار، والعيش الكريم، أنا الخارج من متاهات الحروب، والاضطرابات، هذه الواحة سبح في مياهها أبو علي الكافي قبل حوالي الف عام حين عاد إلى عمان من العراق، موضّحا سبب عودته إلى عُمان بقوله:

ما جرّ هذا الخطب غير تغربي
ومن التغرّب ما أذلّ وأهونا
أزكى بقاع الأرض وهي فسيحة
ما كان سرب العيش فيها آمنا

● وماذا أحسست حين وطأت قدمك أرض عمان لأوّل مرّة؟

منذ الأيّام الأولى لوصولي أرض عُمان، أحسست إنني أعود إلى جذوري الأولى الضاربة في عمق التاريخ، فأجدادي السومريون، كما يؤكد المؤرخون، هم أوّل من سكن عُمان قبل أربعة آلاف سنة، واستخرجوا النحاس، وهم من أسموها «بلاد مجان» كما ورد في الألواح السومرية، أي «أرض النحاس»، وقد أسعدني أنني بعد شهور من وصولي تلقّيت اتصالا من رجل عماني يسكن في فلج بني ربيعة خاطبني بـ «ابن عمّي»، ودعاني لزيارة المنطقة، كما فعل آخرون لاحقا، فالمكان واحد، والتاريخ واحد، والقبائل العربيّة التي كانت دائمة التنقّل واحدة. ومما ساعد على ذلك طبائعي التي ينسجم الكثير منها مع طبائع أهل هذه الأرض الطيبة، وليقيني بأن «الصخرة المتحركة لا ينبت العشب عليها» توقفت صخرتي عن التدحرج في هذا المكان لينبت عشب الحياة، والقصيدة، وقد جاء شرف اكتساب الجنسيّة العمانيّة، ليعزّز شعوري بأنني تماهيت مع المكان، وذبت به، وجرى تدوين اسمي في سجلات أبنائه، ليتجاوز هذا الحب الطرف الواحد إلى أكثر من طرف.

عزة حكاية حب وألم وحياة كاملة مليئة بالتفاصيل

● هذا يعني أن شعورك بالغربة تلاشى، لكنّه ظلّ في أشعارك ؟

الغربة شعور قد يداهم المرء، وهو في وطنه، وفي ذلك يقول أبوحيّان التوحيدي «هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه، ولم يتزعزع عن مهبّ أنفاسه، وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه»، ولو تصفّحت المجموعتين اللتين أصدرتهما في بغداد قبل مغادرتي لها لوجدت فيها الكثير من النصوص التي فيها شعور بالغربة، قد يكون من بينها غربة النفس التي تحدّث عنها ذلك الشاعر البابلي قبل حوالي أربعة آلاف سنة الذي قال :

«لقد نفتنا الآلهة
غرباء حتى مع أنفسنا
نجوس أزمنة التاريخ والمستقبل

الغربة شعور قد يداهم المرء، وهو في وطنه

دون قيثارات
هكذا كان حكمنا الأبدي
رحلة بحّارة يعشقون النبيذ»

• وماذا بقي في ذاكرتك من العراق؟

الكثير...الكثير، رغم أنّني لم أزره سوى مرّتين على مدى ٢٢ سنة، لم تدم كلّ زيارة منهما، أكثر من أسبوعين، وكلاهما حملا طابعا ثقافيّا، لكنّني حملتُ العراق معي أينما حللتُ، حملته كلّه بنخيله، بأحزانه، بحضاراته، الذائبة في وجداني، بعذاباته، برافديه، حتّى إنّني أسميت ابنتي «دجلة»، يقول الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري:

أنا العراق فؤادي نبضه ودمي
فراته وكياني منه أشطار

فلقد عشت على أرضه ثلاثة عقود، ويكفي إن طينتي مجبولة من تراب العراق، فيه نشأت، ودرجت على ترابه، وسرت في دروبه، وجريتُ بين أزقّته، تحت شمسه الحارقة صيفا، وتعلّمت، وعلّمت، وكتبت الشعر، وقبل مغادرتي إيّاه أصدرت مجموعتين شعريّتين هما «إلحاقا بالموت السابق»، و«حدادا على ما تبقى» وقبل ذلك أصدرت مجموعتين للأطفال، هما «وطن جميل»، و«نجمة الليالي»، وعملتُ في الصحافة الثقافيّة، وأسّست حضورا، في الوسط الثقافي العراقي كواحد من شعراء الثمانينيات، حتى إنّ الباحث الموسوعي حميد المطبعي أدرج سيرتي في الجزء الأول من كتابه «موسوعة أعلام العراقيين «الصادر عام ١٩٩٤م الذي يضمّ شخصيّات ثقافيّة، وفنيّة، وسياسيّة، وإعلاميّة، وعامّة، وأدرج د. عمر الطالب سيرتي ضمن شعراء الأطفال في العراق في كتابه «موسوعة أدباء الأطفال في العراق»، وبه أهلي،وأصدقائي، ومدرستي الأولى وملاعب الصبا، يقول الشاعر:

لا تتكروا شوقي إلى بلد به
أهلي، فحكم البين أن أشتاقا

وفي العراق قبور أسلافي، وذكرياتي، وإذا كان الشاعر يقول:

بلاد بها كنّا وكنّا نحبّها
إذ الناس ناس، والزمان زمان

فالحبّ للعراق «ثابت ويزيد» مهمّا تغيّرت أحوال الزمان، ومهما عشت بها من آلام، بسبب تلك التقلّبات، والصراعات الدائرة بين «ديكة السياسة» على حدّ وصف حمزاتوف، يظل العراق مصدر اعتزاز، فهو الذي علّم البشريّة الكتابة سنة ٣٢٠٠ ق.م مهد الحضارة، إذ ظهرت به الحضارة السومريّة، ويعتبر السومريّون الذين يعدّون من أسلاف العرب الحاليين، بناة أقدم حضارة في تاريخ البشريّة، ويظل سراج الحنين للعراق متّقدا، وكما يقول الجواهري:

حننتُ وطال شوقي للعراقِ
وهل يدنو بعيد لاشتياقِ
وهل يدنيك إنّك غير سالٍ
لديه وإنّ دمعك غير راقِ
ولكن تربة تجفو وتجلو
كما تحلو المعاطن للنياقِ

وهنا أستحضر سؤالا وجّه للفيلسوف الإسباني جورج سانتيانا الذي عاش حياته يجوب أقطار الأرض، هو: ألم تشعر بالحنين يوما لبلدك؟ فأجاب «إنني أعيش بقلبي ودمي في بلدي، ولكن هذه هي الحياة، إنّك تحسّ بأنّ قدميك مثبّتتان في الأرض التي تنتمي إليها، بينما تحلّق روحك في الأفق بحثا عن تلك النسمات الطليقة القادمة من هناك».

ومن تمتدّ جذوره في تراب العراق يستحقّ أن يفاخر به، أينما أقام، بخاصّة إنّني استوطنت بلدا عربيّا تربطه ببلدي الأصلي علاقات قديمة تعود إلى زمن السومريين الذين تعود حضارتهم إلى النصف الثاني من الألفيّة الرابعة قبل الميلاد، ومازالت هذه العلاقات التي يسودها التعاون المتبادل، والأخوّة، والمحبّة، والتقدير، مستمرّة بفضل السياسة العمانيّة الحكيمة التي أرسى دعائمها جلالة السلطان قابوس .

جاء شرف اكتساب الجنسية العمانية ليعزز شعوري بأنني تماهيت مع المكان

والقصيدة تضيئان عتمة أيامي، ومعهما محبة المحيطين بي

• هل يمكن اعتبار «قليلا من كثير عزّة» نشيد رثاء يندرج ضمن مراثي الشعراء لزوجاتهم؟

لم أخطط لذلك، ولم يشغلني، رغم إنني، خلال ساعات الحزن، استحضرت مراثي العديد من الشعراء لزوجاتهم، ومنهم جرير في قصيدته التي جاء في مطلعها:

لولا الحياء لعادني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار
نوهت قلبي إذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار

• كيف هي حكاية عزة الحارثية زوجتك التي رحلت أخيرًا بعد صراع مع المرض، وجمعت قصائدك التي كتبتها بها في مجموعة حملت عنوان «قليلا من كثير عزّة» ؟

هي حكاية حياة، وقد سارت بشكل متوازٍ مع علاقتي بعمان، فهي أول امرأة عمانية عرفتها، حين كنت أقيم باليمن، وكانت لها شقيقة هناك، تتردّد عليها بين وقت وآخر، وذات يوم اقترحت عليّ، عبر اتصال هاتفي، فكرة زيارة مسقط، فوافقتُ على الفور، خصوصا أن الشاعر الراحل عبدالوهاب البياتي كان قد زارها أواسط التسعينيات، وأقام أمسية في النادي الثقافي، ونقل انطباعا رائعا، عن نظافة مسقط وطيبة الناس، وهدوء الحياة، وجمال الطبيعة، حتى إنه قال «لو عدت إلى الوراء واخترت الإقامة في عاصمة عربية لاخترت مسقط»، وما أن أبديت لها موافقتي، قامت بعمل ترتيبات الدعوة، وحين هبطت الطائرة التي أقلتني في مسقط، وجدتها بانتظاري عند بوّابة خروج القادمين مع أخيها وأختها، وكانت قد أعدّت لي كل شيء، فتبدد شعور الغربة منذ اللحظة الأولى، وأحسست بأنني في المكان المناسب، مع المرأة المناسبة، وبعد فترة قصيرة ارتبطت بها، في حفل عائلي بسيط، ثم ذهبنا لنسكن شقة صغيرة، ولنبدأ حياتنا المشتركة من الصفر، ومرت السنوات بحلوها ومرها، ولم يعكّر صفو الود شيء، فحكاية عزة هي حكاية حب وألم وحياة كاملة مليئة بالتفاصيل، فقد كانت أكثر من زوجة، فهي صديقة، وحبيبة، وأم، والأهم من كل هذا: وطن بديل، وكان كلّ شيء في حياتنا يسير هادئا، وجميلا، حتى اكتشاف المرض اللعين عندها انقلبت حياتنا إلى جحيم، ومع ذلك لم نفقد الأمل بالله، والطب فتنقلت بين الهند، وفرنسا، ثم أمضت في أحد مستشفيات بلجيكا سنة ونصف كنت خلالها معلقا بين مسقط، و«بيج» البلجيكية، حتى عودتها إلى مسقط بعد أن تعب جسدها من جرعات الكيمياوي ولم يتحمل أكثر، لتصارع المرض دون معين سوى الله، وتلفظ آخر أنفاسها في المستشفى السلطاني، وعندما أهالوا عليها التراب أحسست أنهم دفنوا نصف عمري، وذكرياتي، وأسراري، وأحلامي، ولم يتبق لي سوى «دجلة»

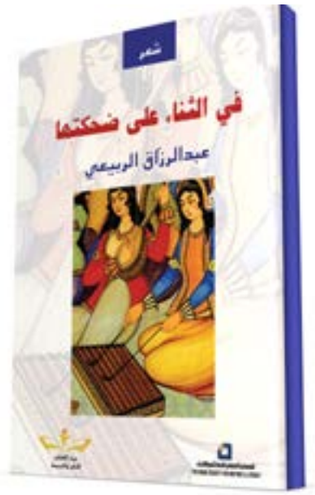

ومرثية نزار قباني لزوجته بلقيس، التي قتلت في حادث تفجير السفارة العراقية ببيروت مطلع الثمانينيات، ومراثي الشاعر يوسف الصائغ لزوجته التي قضت في حادث سير، وخصص لها مجموعة عنوانها «سيدة التفاحات الأربع»، كما فعل الشاعر المصري عبدالرحمن صدقي الذي رثى زوجته في ديوان حمل عنوان «من وحي المرأة»، وكذلك فعل الشاعر محمد مظلوم بقصيدته «الديوان» فاطمة»، وفي غمرة حزني على الفقيدة، كنت استدعي مقاطع من نصوص كتبتها لها خلال رحلة العلاج، التي دامت سنتين، وكذلك في رحلة حياتنا المشتركة، فخطرت ببالي فكرة أن أجمعها في كتاب يصدر في أربعينيّتها، ثمّ أضفت إليها النصوص التي رثيتها بها، وذلك وفاء لإنسانة شاركتني حوالي عشرين سنة من عمري، واستذكارا لها، يقول بورخس «علينا أن نحوّل حياتنا إلى كلمة، إنّ الزمن ينساب كالماء، لكنّ الكتب تبقى للذاكرة»، ومن هذا كلّه لم أشأ أن أجعل مجموعتي «قليلا من كثير عزة» التي وصفها د.حاتم الصكر بـ «تراجيديا شعريّة» كتاب رثاء، بل أردته كتابا يناقش العلاقة الانسانية من مختلف أوجهها، فجاء مزيجا من أفكار حول الحب، والجمال، والموت، والولادة.

• سياق فقد الزوجة ضمن سياقات فقد الأم، والأب، وأنت بعيد في المنفى خاسرا رهاناتك على وطنك الأم العراق، كيف تحولت خساراتك إلى ملحمة ؟

علاقتي بالموت قديمة، تبدأ منذ ولادتي، إذ توفيت عمّتي تاركة بنتا رضيعة، ونحيبا بقيت أسمعه سنوات، ولم ينقطع مع كلّ حالة وفاة تحصل في الأسرة، بل يزداد، لذا غلّف السواد نصوصي منذ بواكيري، وفقدت أخي الذي يكبرني بثلاث سنوات ضمن موجة القمع، والتعسّف في مطلع الثمانينيات، حينها جاءت الحرب بالكثير من جثامين الشهداء، ففقدتُ أصدقاء كثيرين، وأقارب، لذا حملت مجموعتي الأولى عنوان «إلحاقا بالموت السابق»، والثانية «حدادا على ما تبقّى»، واستمرّت قافلة الخسارات، والفقدانات، التي توّجت برحيل زوجتي.

• الذي قرأ مجموعتك الأخيرة «خرائط مملكة القلب» الصادرة ضمن إصدارات مجلة دبي الثقافيّة، والتي أهديتها لها ولدجلة ووصفتهما في الإهداء بـ «نجمتين مشعّتين في سماء الألم «يرى بذور الإحساس بالفقدان واضحا، فلم يكن الفقدان مفاجئا، فهل وجدت في الكتابة متنفّسا؟

هذا ما جعلني أشعر بالتوازن النفسي، عمليّا، لم يبدأ الإحساس بالخسارة بعد رحيلها، بل بدأ منذ أخبرتني

حين سألتها، وكانت عائدة من العمل في طريقها لتعيدني من عملي، كما اعتادت يوميا، عن نتيجة فحص أجرته بعد معاناتها مع سعال متكرر استمر أسابيع، فأجابتني: «ماذا أقول لك؟ النتيجة تقول إنني مصابة بالسرطان»، فضحكت، وظننتها تمزح فالتفتت نحوي، وقالت بألم: «أنا جادة»، عندها دارت بي الأرض، تلك كانت لحظة فاصلة في حياتي، لأنني أحسست إن زلزالا أصاب حياتي، وبعد أن أعادت الفحص واستدعاني الطبيب وأبلغني بالنتيجة، وإن العلاج يبدأ برفع الرئة المصابة عندها كتبت «خذي رئتي»:

خذي ما ضاع من عمري
وما خطّت يد القدر
مشيناها ومن كتبت عليه مشى..

فلم يكن أمامي سوى القصيدة، وآلامها و «الألم شفاء للألم» كما يقول دينيس كاتون، ولم أفكر بعنوان عريض مناسب لما أفعل، وكان الشيء الوحيد الذي يسيطر عليّ هو أن أعبّر عن ألمي في تلك اللحظة، لأجد تفسيرا شعريّا، لطوفان الألم الذي غمرني، ثمّ حاولت أن أدوّن أدق الأحاسيس التي كانت تداهمني، منطلقا من مقولة لمارلو وردت في روايته «الأمل» « هي أفضل ما يفعله الانسان أن يحيل أوسع تجربة ممكنة إلى وعي».

• الضحكة المجلجلة نسمعها منك هل هي الجبل الحاجز لانهيار حزن الشاعر؟

أحيانا يكون الضحك ردة فعل على ما يجري من تراجيديا الحياة أكثر من كونه فعلا، أو نوعاً من المقاومة منعا للانهيار، وجاء ذلك بعد أن كسرت عواطف الزمن الضحكة الصافية النابعة من الأعماق، فصار ضحكنا، «ضحكا كالبكاء» على حدّ وصف المتنبي، وكما يقول الأخطل الصغير:

يبكي ويضحك لا حزنا ولا فرحا
كعاشق خطّ سطرا في الهوى ومحا

لكنّنا ينبغي أن نواصل الحياة، ..ونقاوم تقلباتها بالضحك، لكي نظل نقف على أقدامنا، دون أن ننهار.ما دمنا مؤمنين بقضائه، يقول الله تعالى في سورة البقرة: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ × الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ × أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

• ومن بين نصوص المجموعة، أيّ نص تردّده مع نفسك، ولماذا؟

نصّي «تقاطع الألوان»

مهرت حياتي بالبياض
وأسكنتني في البياض
وألبستني من مباهجها البياض
وعندما اسودّت
سماء الله
في العين الغريبة
أمطرت
فغدوت أرفل بالبياض
وسارت الأيام حبلى بالبياض
وعند تقاطع الألوان
والأزمان
والأسماء
والأنوار
والكلمات
والخيبات
والأحلام
والأورام
ذابت..
ثمّ غابت
في محيط من بياض»

من نعم الله، إنّه لا ينسى عباده، فيبسط لهم كفّ العطاء، والخير في أحلك الظروف، لذا صدر مرسوم منحي شرف الجنسية بعد حوالي أسبوعين من رحيلها، وارتدائها الكفن، وحين لبست الدشداشة البيضاء، ونظرت في اللون الأبيض الذي يطغى على البنايات،والبيوت، تذكّرت تلك المفارقة، التي تعني في النهاية إنّ الحياة تستمرّ رغم كلّ شيء .